المخالفةُ الأُسلوبية المُؤثّرةُ في الإعراب

د. هاشم جعفر حسين
جامعة بابل/ كلية التربية

م. عبد الجواد عبد الحسن علي
جامعة أهل البيت - كلية القانون

تمهيد :

قدّر النحويون نظاماً لتأليف أنماط الجملة العربية ، قام على أساس نظرية العامل ، ومقتضاها : أنّ لكلّ مرفوع أو منصوب أو مجرور عاملاً يُؤثر فيه الإعراب الذي يقتضيه ، وهذا العامل إمّا ظاهراً ، أو مقدراً في ذهن النحوي مؤدياً لوظيفة ظاهرية في المعمول هي الإعراب .

وقد نشأت هذه النظرية منذ نشأة النحو العربي ، ولم تتغيّر أصولها وفروعها حتى يومنا هذا ، وإن تعرضت لكثير من الانتقادات ومحاولات التيسير ، على أساس أنّ تخريجات النحويين لهذه الحالات الإعرابية إنّما هي اجتهادات ظنية قابلة للأخذ والردّ والتطوير ، ومن الإنصاف القول : إنّ النحويين القدماء منهم والمتأخرين لم ينظروا إلى هذه الاجتهادات على أنّها مقدسة ، فوجدنا منهم من يحاول تقديم اجتهادات جديدة لتفسير الظواهر الإعرابية في بعض الأنماط النحوية التي لا تستقيم وتنظير النحويين ، ومن هذه الأنماط أساليب قرآنية تفرد به التنزيل العزيز – نصّه وقراءاته – والشعر العربي الفصيح .

وقد حاولتُ في هذا البحث تفسير ما حدث من مخالفة للإعراب بتأثير تغيّر المعنى المراد في هذا النوع من الأنماط النحوية ، كأُسلوب المدح والذم ، وأُسلوب الاختصاص ، وغير ذلك – وقد أطلقتُ عليه بـ (المخالفة الأُسلوبية المؤّثرة في الإعراب) – بمعزل عن نظرية العامل والمعمول ، ذلك أنّ تطويع مثل هذه المخالفة الأُسلوبية لنظرية العامل لا تبدو ممكنة إلا بتأويل وتكلّف بعيدين وتجنبهما والاعتماد في تفسير تغيّر الإعراب على التحويل الأُسلوبي العارض على نمط الكلام لمعنى مقصود أوفق وأولى .

أمّا مجال تطبيق دراستي لهذه المخالفة الأُسلوبية ، فكان نصوصاً من القرآن الكريم وقراءاته تنطبق عليها هذه الدراسة ، فضلاً عمّا أمكنني الوقوف عليه من الشواهد الشعرية المعتمدة ، وعلى أساس ذلك قسّمتُ الدراسة على مبحثين ، تناول أولهما : المخالفة الأُسلوبية في نص القرآن الكريم وقراءاته ، وتناول الآخر : دراسة المخالفة الأُسلوبية في الشواهد الشعرية الفصيحة .

المبحث الأول : المخالفة الأُسلوبية في نصّ القرآن الكريم وقراءاته

أُسلوب القرآن الكريم أُسلوب انفرد به هذا الكتاب المقدس ، وإن جاء على وفق ما اعتادت عليه العرب من أساليب ، فقد نزل بلغتهم وكلمهم بكلامهم ، ولكنه انفرد بإعجازه المنبثق من طريقة نظمه ، وموالفة ألفاظه ، وغير ذلك من السمات المميزة له من أساليبهم ، وإن لم يكن خارجاً عنها .

والمزايا التي يتسم بها أُسلوب القرآن كثيرة ، غير أنّي سأقتصرُ منها على شعبة واحدة ، هي : المخالفة الأُسلوبية في التراكيب النحوية القرآنية محلّ البحث ولا أعني بها : ما أطلق عليه القدماء (المناسبة السياقية ، أو المشاكلة)، التي هي : جري الكلام على نسق أُسلوبي واحد [1] . كما ورد في قوله تعالى: **{ وقولوا حِطَّةٌ نَغفِرْ لكم خَطاياكُم }** [2]. إذ قرأ نافع : (يَغفِر) بالياء ، وقرأ ابن عامر (تُغفَر) ، وقرأ أبو عمرو وحمزة (نَغفِر) بالنون [3] .

وقد وُجهت قراءة (نَغفر) بالنون على المشاكلة الأُسلوبية أو مناسبة السياق إذ هي مردودة على قول الله السابق في الآية نفسها ، لأنّ (نغفر) جاءت إخباراً عن الله جلّ ذكره ، والتقدير : وقلنا ادخلوا الباب سجداً وقولوا حِطّةٌ نَغفر لكم [4] .

وهذا التوجيه الأُسلوبي لا مخالفة فيه من جهة الإعراب ، ولكنه يتعلق بالأُسلوب البلاغي ، فهو بعيد عن مقصود البحث .

وكذلك أنّ المخالفة الأُسلوبية هي ليست تلك الظواهر البلاغية الصرف، مثل إعادة الكلام لطوله على سبيل التوكيد ، كما في قوله تعالى : **{ لا تَحسَبَنَّ الذين يَفرحونَ بما أتَوا ويُحِبُّونَ أن يُحمَدوا بِما لَمْ**

---

[1] . ينظر : مناهل العرفان ٢ / ١٩٩٢ .

[2] . البقرة / ٥٨ .

[3] . ينظر: السبعة في القراءات ١٥٧ ، والكشف عن وجوه القراءات ١ / ١٤٣ ، والبحر المحيط ١/ ٣٨٥..

[4] . ينظر : الحجة في القراءات ٩٨ ، و الكشف ١ / ١٤٣ ، والبحر المحيط ١/ ٣٨٥.

يَفعلوا فلا تَحسَبنَّهم بِمفازةٍ من العذابِ ولهُم عَذابٌ أليمٌ }[1]. فقد ذُكر في توجيه إعادة (تَحسبنَّهم) أنّها جاءت للتوكيد وحسن ذلك لطول الكلام ، فالإعادة هنا تؤكد أنّ الذي جرى آخراً متصل بالأول وتوضح أنّ الثاني سبب للأول [2] .

فالذي نعنيه بالمخالفة الأُسلوبية المؤّثرة في الإعراب، هو: تغيّرُ أُسلوب الكلام من حالة إلى أخرى ، وأثرُ هذا التغيّر في دلالة الأنماط الكلامية ، وما يتبع هذا من تغيّر الإعراب .

وفي هذا الصدد أشيرُ إلى أنّه قد وردت في بعض النصوص القرآنية وقراءاتها أساليب وأفانين من القول شغلت النحويين وعلماء القراءات ، فالنحويون دفعوا مخالفتها لمّا استقر عندهم من الأحكام بالتأويل والتقدير لغرض تثبت قواعدهم على حين دافع علماء القراءات عن توثيق ما قرأوا بأنّ القراءة مسندة إسناداً صحيحاً يصل بعضه إلى حد التواتر ، فالقراءة المتواترة تُعلى على الاجتهادات النحوية التي يضعها بشرٌ قد يقصر بهم الاجتهاد. وفي ما يأتي سأُلقي الضوء على جملة من المواضع التي حصلت فيها المخالفة الأُسلوبية في بعض الأساليب النحوية وأثر ذلك في الإعراب :

- في قوله تعالى : **{ والمُوفونَ بِعدِهِم إذا عاهَدوا والصَّابرينَ في البأساءِ والضَّراءِ وحِينَ البأسِ }** [3].

انصبت جهود علماء النحو والقراءات والتفسير في الجانب الإعرابي لهذه الآية الكريمة لتوجيه نصب (الصابرين) المعطوفة على (الموفون) ، فذكر الواحديّ (٤٦٨هـ) : أنّ (الصابرين) انتصب على المدح ،وإن كان معطوفاً على مرفوع ((لأنّ العربَ إذا تطاول الكلامُ اعترضتْ فيه بالمدح أو الذم ، فينصبون وإن كان حقه الرفع)) [4] .

وزاد الزمخشري (٥٣٨هـ) الأمر تحديداً حين ذكر أنّه منصوبٌ ((على الاختصاص والمدح ، إظهاراً لفضلِ الصبر في الشدائد ، ومواطنِ القتال على سائر الأعمال)) [5] . وإلى هذا ذهب ابن كثير(٧٧٤هـ) والآلوسي (١٢٧٠هـ) [6] .

أمّا الرازي (٦٠٦هـ) فاكتفى بذكر آراء بعض النحويين في توجيه نصب (الصابرين) فذكر منها : رأي الكسائي (١٨٩هـ) : أنّ (الصابرين) معطوف على (ذوي القربى) المذكور في أول الآية نفسها ، فكأنّ القول : وآتى المال على حبّه ذوي القربى والصابرين ، فهو عطف على (مَن) في أول الآية : **{ ولكنّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ .....}** وردّه الرازي : بأنّ ذلك يستلزم أن يكون قد عُطف على الموصول شيء قبل صلته، وهذا غير جائز ، لأنّ الموصول مع الصلة متلازمان بمنزلة اسم واحد ، ومن غير الممكن أن يُوصف الاسم أو يُؤكد أو يُعطف عليه إلا بعد تمامه وانقضائه بأجزائه جميعها [7] .

وذكر الرازي [8] أيضا رأي الفرّاء (٢٠٧هـ) [9] في هذه المسألة ، وهو أنّ :(الصابرين) نُصب على المدح ، لطول الكلام بالمدح ، والعرب تنصب على المدح وعلى الذم في مثل هذا الموضع . كقراءة: **{ حمّالةَ الحَطَبِ }** بنصب (حمّالة) على الذم [10] .

وقد اختلف البصريون والكوفيون في تقدير النصب على المدح ، فذهب البصريون إلى أنّه انتصب بفعلٍ مضمرٍ مقدرٍ، هو(أعني) أو غيره [11]. وخطّأهم في ذلك الكوفيون بحجة أنّ (أعني) إنّما

---

[1] . آل عمران / ١٨٨.

[2] . ينظر : التفسير الكبير للرازي ٩ / ١٣٦ ، والبحر المحيط ٣/ ١٤٣. ١٤٤، وروح المعاني ٤ / ١٥١ .

[3] . البقرة / ١٧٧ .

[4] . الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١ / ٢٥٢ .

[5] . الكشاف ١ / ٢٥٤ .

[6] . ينظر : تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٩ ، وروح المعاني ٢ / ١٤٧ .

[7] . ينظر: التفسير الكبير للرازي ٥/ ٤٨.

[8] . ينظر: المصدر نفسه ٥/ ٤٨. ٤٩.

[9] . ينظر: معاني القرآن للفرّاء ١/ ١٠٥. ١٠٦.

[10] . المسد / ٤ . قرأها بالنصب عاصم من السبعة ، وقرأ الجمهور بالرفع ، ينظر: الكشف عن وجوه القراءات ٢ / ٣٩٠ .

[11] . ينظر: معاني القرآن للأخفش ١/ ١٦٧، والإنصاف في مسائل الخلاف (م٦٥) ٢/ ٤٦٨ ، والتفسير الكبير للرازي ٥/ ٤٨. ٤٩، والبحر المحيط ٣/ ٤١١.

يقع تفسيراً للاسم المجهول، والمدح لا يأتي بعد المجهول وإنّما يأتي بعد المعروف ، وبأنّه لو صحّ ما يقوله البصريون لصحّ أن نقول: قام زيدٌ أخاك ، على معنى : أعني أخاك ، وهذا ممّا لم تقله العرب [1] .

ولا حجة للكوفيين في هذا، لأنّ تمثيلهم بـ (قام زيدٌ أخاك) ليس من باب المدح ، وإنّما هو من باب البدل، لأنه جامد ، والبدل ليس فيه من معنى المدح شيء .

وهذه الآراء التي ذكرها المفسرون في نصب (الصابرين) ، قد وردت عند قدامى النحويين الذين نقل سيبويه (١٨٠هـ) آراءهم في كتابه ، وقد قرروا أنّ هذا الأُسلوب هو مما سُمع عن العرب ، قال سيبويه : ((وسَمِعنا بعضَ العرب يقولُ : (الحمدُ للهِ ربَّ العالمين) ، فسألتُ عنها يونس ، فزعمَ أنّها عربيةٌ . ومثلُ ذلك قولُ الله عزّ وجلّ : **{ لكنِ الراسخونَ في العلمِ مِنهُمْ والمؤمنونَ يُؤمنونَ بِما أُنزِلَ إليكَ وما أُنزِلَ مِن قبلِكَ والمُقيمينَ الصَّلاةَ والمُؤْتونَ الزَّكاةَ }** [2]. فلو كان كلُّه رفعاً كان جيداً ، فأمّا (المؤتون) فمحمولٌ على الابتداء وقال جلَّ ثناؤه : **{ ولكنَّ البِرَّ مَن آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ وآتى المالَ على حُبِّه ذوي القُربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقابِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ والمُوفونَ بعهدِهِم إذا عاهدوا والصَّابرينَ في البأساءِ والضَّرّاءِ وحينَ البأسِ }** ولو رفعَ (الصابرين) على أول الكلام كان جيداً ، ولو ابتدأتَه فرفعتَه على الابتداء كان جيداً،كما ابتدأتَ في قوله (والمؤتون الزكاة) ..... زعم الخليل: أنّ نَصْبَ هذا على أنّكَ لم تُرِدْ أنْ تُحَدِّثَ الناسَ ولا مَن تُخاطِبُ بأمرٍ جهلوه ، ولكنّهم قد علموا من ذلك ما قد علمتَ ، فجعله ثناءً وتعظيماً ، ونَصَبَهُ على الفعل)) [3].

وقد تحدّث سيبويه عن هذا أيضا في باب : (ما يُنصَبُ فيه الاسم لأنّه لا سبيل له أن يكون صفةً) ، فقال: ((وممّا لا يجوزُ فيه الصفةُ : فوقَ الدار رجلٌ وقد جئتُكَ برجلٍ آخَرَ عاقلينِ مسلمَينِ ، وتقول : اصنَعْ ما سَرَّ أخاك ، وأحبَّ أبوك الرجلانِ الصالحانِ ، على الابتداء ، وتنصبه على المدح والتعظيم)) [4].

وعلى الرغم من الخلاف بين البصريين والكوفيين في تعليل إعراب (الصابرين) [5]، غير أنّ الطرفين اتفقا في الناحية الدلالية ، فالبصريون – وعلى رأسهم الخليل (١٧٥هـ) وسيبويه ـ نصّوا على أنّ هذا الأُسلوب خرج من الشكل الخبري إلى أُسلوب معنوي هو المدح ، وعليه تغيّر الأُسلوب الإعرابي ليُدلّ على تغيّر معنى الخبر إلى معنى المدح [6]، وهو رأي الكوفيين أيضاً من الناحية الدلالية ، إذ رأى الفرّاء أنّ (الصابرين) إنّما نُصبت ، لأنّها من صفة (مَن) ((فكأنّه ذهبَ بها إلى المدح ، والعربُ تعترضُ من صفاتِ الواحد إذا تطاولتْ بالمدح أو الذم فيرفعون إذا كان الاسم رفعاً ، وينصبون بعضَ المدح ، فكأنّهم ينوون إخراجَ المنصوب بمدحٍ مُجَدَدٍ غيرِ متبعٍ لأولِ الكلام)) [7].

وكذا عنده الموضع الآخر : **{ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة }** ، فـ (المقيمين) نعت لـ (الراسخون) ولمّا كثُرت النعوت وتطاولت بالمدح نُصب لبيان فضل الصلاة [8] .

واتضح من عرض آراء المفسرين أنّهم ميّالون للأخذ برأي الكوفيين [9] من جهة الإعراب ، أمّا من الناحية الدلالية فالرأي متفق على أنّ تغيّر الأُسلوب من معنى إلى معنى آخر مقصود سببُ تغيُّرِ الإعراب ، وإنّما أخذ المفسرون برأي الكوفيين في الإعراب ، وقوفاً منهم على اتباع المنهج الوصفي في تفسير هذين الموضعين (الصابرين – المقيمين) ، وغيرهما من المواضع في القرآن الكريم، التي احتاج

---

[1] . ينظر : معاني القرآن للفرّاء ١ / ١٠٦ ، والإنصاف (م٦٥) ٢/ ٤٦٨ ، والتفسير الكبير للرازي ٥/ ٤٨. ٤٩، والبحر المحيط ٣/ ٤١١، والمقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية ٥/ ٤٧٣.

[2] . النساء / ١٦٢ .

[3] . كتاب سيبويه ٢ / ٦٣ – ٦٦ .

[4] . كتاب سيبويه ٢ / ٥٧ .

[5] . ينظر: الإنصاف (م٦٥) ٢/ ٤٦٨

[6] . ينظر: كتاب سيبويه ٢/ ٥٧. ٥٩..

[7] . معاني القرآن ١ / ١٠٥ – ١٠٦ .

[8] . ينظر : المصدر نفسه : ١ / ١٠٦، والبحر المحيط ٣/ ٤١١ .

[9] . ذكر أبو البركات الأنباري (٥٧٧هـ) : أنّ رأي الكوفيين في (المقيمين) أنّها مخفوضة بالعطف على الضمير المجرور قبلها (أي: الكاف في إليك) والتقدير: يؤمنون بما أنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة من الأنبياء عليهم السلام . أو أنّها مخفوضة عطفا على (الكاف في قبلك) والتقدير: من قبلك ومن قبل المقيمين الصلاة من أمتك . ورأيهم هذا بنيّ على جواز العطف على الضمير المخفوض ، ينظر: الإنصاف (م ٦٥) ٢/ ٤٦٣.

البصريون في استقامة إعرابها على مذهبهم إلى قدرٍ من التأويل، كما هو الحال في المواضع التي سترد في البحث .

- في قوله تعالى : **{ إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئونَ والنَّصارى مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالحاً فلا خَوفٌ عليهِم ولا هُم يَحزنونَ }** [١].

قال النحويون، وتبعهم المفسرون [٢] بآراءٍ متفرقة في توجيه رفع (الصابئون) ومنها: أنّها مرفوعة على الابتداء ، ومنوي بها التأخير ، كما في قولهم (إن زيداً وعمرٌو قائمٌ) ، والتقدير: إن زيداً قائمٌ وعمرٌو قائمٌ ، فحُذف خبر (عمرو) لدلالة خبر (إنّ) عليه ، و هذا هو توجيه البصريين [٣]، قال سيبويه : ((وأمّا قولُه عزّ وجلّ : { والصابئون } ، فعلى التقديم والتأخير ، كأنّه ابتدأ على قوله (والصابئون) بعدما مضى الخبر)) [٤]. وعلى أساس هذه الآية الكريمة وغيرها من الشواهد السمعية وضع النحويون ما سُمِّي في باب إنّ وأخواتها بـ (العطف على اسم إنّ بالرفع قبل تمام الخبر) [٥] ، وتعددت آراؤهم في توجيه إعراب المعطوف ، في شواهد شعرية متعددة ، ومنها قول بشر بن أبي خازم [٦] :

وإلا فاعلَموا أنّا وأنتُمْ بُغاةٌ ما حَيينا في شِقاقِ

وقول ضابئ البُرجُمي [٧] :

فَمَنْ يكُ أمسى بالمدينةِ رَحْلُهُ فإني وقَيّارٌ بها لَغَريبُ

فذهب البصريون إلى أنّه لا يجوز العطف قبل تمام الخبر ، وما سُمع من ذلك أي : (أنتم) في الشاهد الأول : و(قيّار) في الشاهد الثاني قد رفعا على الابتداء ونُوي بهما التأخير ، وخبرهما محذوف دلّ عليه خبر (إنّ)، والتقدير في الأول : فاعلموا أنّا بُغاة وأنتم بُغاة ، وفي الثاني : فإنّي غريبٌ وقيّارٌ غريبٌ .

وذهب الكوفيون إلى جواز العطف قبل تمام الخبر، و أنّ المعطوف قد عُطف على موضع اسم (إنّ) فرُفع ، لأنّ موضعه أنّه مبتدأ قبل دخول (إنّ) عليه ، ثم ذهب الفرّاء إلى جواز عطف المرفوع على اسم (إنّ) إذا كان اسمها ممّا يخفى فيه الإعراب لبنائه ، كالشاهدين السابقين ، وهو بهذا يخالف الكسائي الذي أجاز رفع المعطوف على الموضع، سواء أ كان المعطوف عليه (أي: اسم إنّ) ممّا خفي فيه الإعراب أم ممّا ظهر فيه [٨].

ويبدو أنّ الفرّاء ، إنّما قلّل من عمل (إنّ) فاشترط في اسمها المعطوف عليه محلاً أن يكون ممّا يخفى فيه الإعراب ، ولم يجز العطف مع اسمها الظاهر الإعراب لأنّ (إنّ) ضعيفة في العمل، لشبهها بالأفعال من عدة وجوه ، فهي فرع عليها في العمل ، والفروع تنحط أبداً عن رتبة الأصول ، ويترتب على ذلك احتسارٌ في عمل الفرع .

فـ(إنّ) – وإنْ شابهت الفعل في العمل - إلا أنّها لم تقوَ قوتَه ، فاقتصر عملها على نصب الاسم ، لأنّها حرف ، والحروف ليست بمنزلة الأفعال .

وأدلى المفسرون دلوهم في توجيه رفع (الصابئون) في الآية الكريمة [٩]، فنقل الزمخشري رأي البصريين فقط في توجيه الرفع ووافقهم فيه واعتل بعللهم النحوية ، ثم وجّه عنايته نحو دلالة تقديم (الصابئون) على ما بعده من الأسماء المعطوفة ، وهو منوي به التأخير بعد تمامها والرفع على الابتداء، فقال: ((فإنْ قلتَ ما التقديمُ والتأخيرُ إلا لفائدةٍ، فما فائدةُ هذا التقديم ؟ قلتُ: فائدتُه التنبيهُ على أنّ الصابئين يُتابُ عليهم إنْ صحَّ منهم الإيمانُ والعملُ الصالح،فما الظنُّ بغيرهم؟ وذلك أنّ الصابئين أبينُ هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدُّهم غيّاً، وما سُمّوا صابئين إلا لأنّهم صَبَئوا عن الأديان كلِّها ، أي: خرجوا)) [١٠] .

---

[١] . المائدة / ٦٩.

[٢] . ينظر: البحر المحيط ٣/ ٥٤١.

[٣] . ينظر: كتاب سيبويه ٢/ ١٥٥، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/ ١٩٣، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٢٣٢. ٢٣٣، والإنصاف (م ٢٣) ١/ ١٨٥.

[٤] . كتاب سيبويه ٢ / ١٥٥ .

[٥] . ينظر: الإنصاف (م ٢٣) ١/ ١٨٧.

[٦] . ديوانه ١١٦.

[٧] . البيت من شواهد: كتاب سيبويه ١ / ٥٧، والأصول في النحو ١/ ٢٥٧ ، والإنصاف (م ١٣)١ / ٩٤ ، والتبيان في إعراب القرآن ١ / ٢٢١ .

[٨] . ينظر : مشكل إعراب القرآن ٢٣٢/١-٢٣٣ ، و الإنصاف : (م٢٣) ١ / ١٨٥ – ١٨٦، والبحر المحيط ٣/ ٥٤١ .

[٩] . ينظر : التفسير الكبير للرازي ١٢ / ٥٢ ، و التبيان في إعراب القرآن ١ / ٢٢١ – ٢٢٢ ، والبحر المحيط ٣ / ٥٣١ وروح المعاني ٦ / ٢٠٢ .

[١٠] . الكشاف ١/ ٦٩٤.

وكان أكثرهم مناقشة للآراء النحوية التي قيلت في الآية الكريمة العكبري (٦١٦هـ) ، فقد ذكر منها سبعة آراء ، وعرض لحججها وردّ بعضها، ومنها [١]:

- أنّ (الصابئون) معطوف على الفاعل في (هادوا) ، وردّه العكبري بأنّه فاسد من وجهين ، أحدهما : أنّه يُوجب كون (الصابئون) هوداً ، وليس كذلك. والآخر : أنّ ضمير الجماعة المتصل لم يُؤكَّد بضمير رفع منفصل وهو شرطٌ للعطف عليه [٢] .
- أنّ (إنّ) في الآية الكريمة بمعنى (نعم) فما بعدها في موضع رفع ، والصابئون كذلك، وردّ هذا أبو حيان (٧٤٥هـ) بأنّ مجيء (إنّ بمعنى نعم) يستلزم أن لا تأتي (إنّ) في أول الكلام ، بل تحتاج إلى كلام قبلها لتكون جواباً له [٣] .
- أنّ (الصابئون) ورد مرفوعاً على لغة بلحارث بن كعب ، ووصفه أبو البقاء بأنّه بعيد، لأنّ ما أُثر عن هذه القبيلة : أنّهم يجعلون التثنية بالألف على كلّ حال، ولم يُؤثر عنهم أنّهم يجعلون الجمع بالواو على كلّ حال .

وقد مال أبو البقاء إلى ترجيح أحد الآراء الغريبة ، وهو أن جعل النون في (الصابئون) حرف الإعراب ، ذاكراً أنّ أبا علي الفارسي (٣٧٧هـ) قد أجازه مع الياء ومنعه مع الواو ، وأنّ غير أبي علي أجازه والقياس لا يدفعه [٤] .

وذكر الآلوسي أنّ أحسن الوجوه – على بعده – هو أنّ (الصابئون) عطف على الصلة بحذف الصدر ، أي : الذين هم الصابئون [٥] .

وبعد هذا العرض لآراء العلماء يمكن أن نبيّن أنّ السبب في تعدد الأوجه الإعرابية لهذه المواضع عندهم – مع التفاتهم إلى أثر تغيُّر الأُسلوب في الإعراب – هو سيطرة نظرية العامل على التفكير النحوي ، وحرصهم الشديد على تطبيقها بمفاصلها الدقيقة في بيئة الدرس النحوي التعليمي ، ليطرد لهم التنظير والتطبيق إلى الأجيال المتعاقبة ، فكان من نتيجة ذلك أنهم ضحّوا بالمعاني الدقيقة والنكت الدلالية في أنماط من الكلام وردت في أعلى النصوص مستوى من مستويات اللغة ، وهي نصوص القرآن الكريم ، وكذلك في شواهد شعرية فصيحة إيثاراً منهم للجانب الشكلي التعليمي لنظرية العامل ، ودليل ذلك أنّ سيبويه – وقد أدرك أنّ تحوُّلَ معنى (الصابرين) و (المقيمين) إلى معنى المدح قد غيّر وجهة الإعراب - راعى الجانب الشكلي للعمل الإعرابي ، وما تفرضه القواعد التعليمية فقدّر فعلاً ناصباً للاسم على الاختصاص بالمدح ، وأخذ يُعدّد احتمالات مفترضة في النص القرآني تساير الضوابط النحوية ، فقال في (المقيمين) : ((فلو كان كلُّه رفعاً كان جيداً)) [٦]. وقال في (الصابرين) : ((ولو رفعَ (الصابرين) على أولِ الكلام كان جيداً ، ولو ابتدأتَه فرفعتَه على الابتداء كان جيداً)) [٧].

ثم تشدّد في قبول مثل هذا التغيّر الأُسلوبي الخارج إلى معنى المدح ، والمؤثِر في تغيّر الإعراب بما لا يتناسب وقواعد النحو ، فاشترط لصحة وقوعه شرطين[٨]:

أولهما : أن تكون الصفةُ صفةً موجودةً للمدح والثناء ، بحيث تكون مألوفة في عُرف الناس .

والآخر : أن يكون الممدوح معروفاً لدى المخاطب بأنّه جدير بالمدح والتعظيم .

واشترط غيره لاختلاف الإعراب أن يطول الكلام بكثرة النعوت ، وأن يُبالَغ في معناها ، ويُزاد الإسهاب في الثناء أو الذم أو غير ذلك من المعاني [٩].

---

١. ينظر : التبيان في إعراب القرآن ١ / ٢٢١ – ٢٢٢ .

٢. اشترط ذلك البصريون ، ولم يشرطه الكوفيون ، بل أجازوا العطف على الضمير المرفوع المتصل من دون توكيده ، ينظر : الإنصاف (م٦٦) ١ / ٤٧٥ – ٤٧٨ .

٣. ينظر: البحر المحيط ٣/ ٥٤١.

٤. ينظر : التبيان في إعراب القرآن ١ / ٢٢٢ .

٥. ينظر : روح المعاني ٦ / ٢٠٢ .

٦. كاتب سيبويه ٢ / ٦٣ .

٧. المصدر نفسه ٢/٦٤.

٨. ينظر: المصدر نفسه ٢/ ٦٩.

٩. ينظر: المحتسب ٢/ ١٩٨، والكشاف ١/ ٦٩٤، و البحر المحيط ٢/ ٧.

ونجد بعض القُرّاء أكثر تشدداً من النحويين في قبول هذه المخالفات الإعرابية في النصوص القرآنية ، حتى وصل الأمر بهم إلى أن غلّطوا رسم المصحف، ولحّنوا مَن قرأ بهذه المخالفات الإعرابية الثابتة في خط المصحف [١].

وأخلصُ من هذا إلى القول : بأنّ المخالفة الأُسلوبية التي يقصد إليها المتكلم قصداً لإنشاء معنى جديد مراد عنده ، هي السبب لتغيّر الإعراب ، وليس ثمة داعٍ إلى التكلف والفروض للبحث عن الوجوه الشكلية لإقامة ضوابط الإعراب المفترضة ويمكن لنا – على هذا الأساس – أن نُفسر رأي القدماء الذين ذكروا : أنّ العرب يخالفون بين الإعراب إذا طالت النعوت [٢] . ففي قوله تعالى : **{ والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس }** عرضَ تحوُّلٌ في أُسلوب الكلام ، إذ لم يقصد سبحانه وتعالى مطلق الخبر عندما تحدث عن (الصابرين) ولكنه أراد أن يُثني على هؤلاء الصابرين ، فانتقل بالكلام من الأُسلوب الخبري إلى أُسلوب المدح والثناء، فتغيّر الإعراب تبعاً لذلك ، ليدلّ بهذا التغيّر الشكلي على موضع عنايته سبحانه بعموم الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، حثّاً على المزيد من الصبر على المصائب ، والله أعلم .

وهو ما نلحظه أيضاً في قوله تعالى : **{ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر }** فقد وردت هذه المعطوفات منسوقة على (الراسخون) ، ولكن عرض لهذه الآية الكريمة مخالفة أُسلوبية في كلمة (المقيمين) تغيّر على إثرها الإعراب ، لأنّ القصد لم يتعلق بالإخبار فحسب ، بل حثّ الناس على إقامة الصلاة بمدح مقيميها والثناء عليهم .

وهكذا الأنماط الأُخَر تجري على هذا النسق ، أي : إنّ طريقة المخالفة الأُسلوبية في الإعراب تخرج النمط اللغوي من بنيته المتعارف عليها على وفق ضوابط اللغة ، إلى بنية أخرى مختلفة تركيباً ، كتحويل الإعراب من الرفع إلى النصب ، أو من النصب إلى الرفع، لإضفاء مزيد من الترغيب بالأمر أو التنفير عنه على أساس أن هذه المخالفة أدّت إلى تغيير قيمة المعنى في ذهن المخاطب، وهي ـ بلا شكّ ـ وسيلة لاستغلال الطاقات الكامنة في النظام اللغوي .

ويجب الذكر: أنّ أمر هذه المخالفة الأُسلوبية وأثرها في تغيّر الإعراب ليس مقتصراً على هذه المواضع، بل إنّ هناك مواضع أُخَر اشتملت عليها بعضُ الأبواب النحوية، كالاختصاص والإغراء والتحذير ، يمكن أن تُدرس وتُحلل على أساس المخالفة الأُسلوبية ، ويُعاد النظر في شأن قواعدها ، فهذه الأساليب قد عرض لها مثل هذه المخالفات الأُسلوبية التي غيّرت إعرابها، ففي قراءة نصب (حمّالة) في قوله تعالى : **{ وامرأتُهُ حَمّالةَ الحَطَبِ }** ، تغيّر الإعراب إلى النصب تبعاً لتغيّر الأُسلوب من الخبر المحض إلى معنى الذم ، لأنّ هذه المرأة كانت قد اشتهرت بالنميمة، وكانت السبب الرئيس في جلب المصائب على زوجها فجرّته إلى معاداة الرسول (ص) ، فكان النصب على اختصاص الذم أولى بها ، إذ أفاد معنى أنّها قرينة زوجها في النار ، وأنّها تحمل حطب هذه النار ، لأنّها السبب فيها ، فكان في النصب مبالغة في الذم عليها ، ولا يتحقق مثل هذا المعنى إن جرى الكلام على نسق إعرابي موحّد (أي : الرفع في حمّالة) ، إذ المعنى يقتصر حينئذ على ذمّها من جهة واحدة ، هي أنّها تحمل حطب نار زوجها ، يقول مكي بن أبي طالب (٤٣٧ هـ) في اختلاف معنى النصب عن الرفع في قراءة (حمّالة) : ((وفي الرفعِ ذمٌّ ، ولكنّه في النصب أبينُ ، لأنّك إذا نصبتَ لم تقصد إلى أن تزيدَها تعريفاً وتبييناً ، إذ لم تُجرِ الإعرابَ على مثلِ إعرابِها ، وإنّما قصدتَ إلى ذمِّها)) [٣].

المبحث الثاني : المخالفة الأُسلوبية في الشواهد الشعرية الفصيحة

وردت المخالفة الأُسلوبية كثيراً في الشواهد الشعرية التي تغيّر إعرابها تبعاً لتغيّر أُسلوب الكلام من الخبر إلى المعاني الأُخَر ، كالمدح والذم والفخر والترحُّم والتعظيم وما إلى ذلك ، ممّا يعزز أنّ هذه الطريقة في التعبير الأُسلوبي تشكل ملمحاً أُسلوبياً مميزاً يستحق الدراسة، للكشف عن الدلالات المعنوية التي تخرج إليها المخالفات الأُسلوبية ، ومن أمثلة ما وقفتُ عليه من الشواهد الشعرية ما يأتي :

---

[١] . ينظر: الكشاف ١/ ٦٢٣، والبحر المحيط ٣/ ٤١١.

[٢] . ينظر : معاني القرآن للفرّاء ١ / ١٠٥ ، والمحتسب ٢ / ١٩٨ ، والبحر المحيط ٣ / ٤١١ .

[٣] . الكشف عن وجوه القراءات ٢ / ٣٩٠ .

- قال مهلهل [1] :

ولقد خَبَطْنَ بُيوتَ يَشْكُرَ خَبْطةً أخوالَنا وهُمُ بنو الأعْمامِ

فنصب (أخوالنا) على المخالفة الأُسلوبية ، لأنّه خالف من الرفع إلى النصب إذ لم يقصد الخبر، فكأنّه حين قال : خبطن بيوت يشكر ، فقيل له: وما هم ؟ قال : أخوالنا وهم بنو الأعمام ، فنصب على المدح .

على أنّ سيبويه روى البيت برفع (أخوالنا) [2]، على الأُسلوب الخبري .

- قال الفرزدق [3] :

ألم ترَ أنّا بني دارمٍ زُرارةُ مِنّا أبو مَعْبَدِ

نصب (بني) على معنى المدح والفخر ، ولم يشأ أن يُخبر به ، إذ لو أخبر لرفع ، ولكنّه خالف الأُسلوب الخبري بسبب ما دخل من معنى المدح والفخر قال سيبويه : ((فإنّما اختصَّ الاسمُ هنا ليُعرفَ ، بما حُمِلَ على الكلام الأول ، وفيه معنى الافتخار)) [4].

- وقالت خِرْنِق بنت هفّان أخت طرفة بن العبد [5] :

لا يَبْعَدَنْ قومي الذين هُمُ سَمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ

النازلونَ بكلِّ مُعتَرَكٍ والطيبينَ مَعاقِدَ الأُزْرِ

فنصبت (الطيبين) على المدح ، ولو كان إخباراً لرفعَتْ كما رفعت النعوت الباقية ، ولكن لمّا طالت النعوت ، حدثت المخالفة الأُسلوبية من الرفع إلى النصب، عنايةً بمدح القوم بهذه الصفة الأخيرة ، فتغيّر الإعراب ليدلّ على تلك المخالفة .

وما أثبتُه من إنشاد البيت ما ورد في ديوانها ، على أنّه قد وردت فيه روايات متعددة، فقد رُوي : (النازلين والطيبون)، و (والنازلون والطيبون) ، و (والنازلين والطيبين) [6] .

- قال رؤبة [7] :

*** بِنا تَميماً يُكْشَفُ الضَّبابُ ***

فنصب (تميماً) على الاختصاص ، وكان الأصل فيها أن تكون مرفوعة ، ولكنّه خالف إلى النصب ، لأنه غيّر أُسلوبه الى معنى مقصود عنده، هو الفخر ، وهو من الاختصاص.

- قال كعب بن زهير [8] :

فلم يَجِدا إلا مُناخَ مطيةٍ تجافى بها زَوْرٌ نَبيلٌ وكَلْكَلُ

وسُمْرٌ ضِماءٌ واتَرَتْهُنَّ بعدما مَضَتْ هَجْعةٌ مِن آخرِ الليلِ ذُبَّلُ

لم يعطف (سُمْرٌ) على (مناخَ مطية) ولكنّه رفعَ على معنى المدح ، فخالف في أُسلوبه الكلامي، فتغيّر الإعراب تبعاً لذلك ، ولكن من النصب إلى الرفع هذه المرة .

---

[1] . ديوانه ٦٤.

[2] . ينظر : كتاب سيبويه ٢ / ١٦ ، ٦٣ .

[3] . ديوانه ٥٥ .

[4] . كتاب سيبويه ٢ / ٢٣٤ .

[5] . ديوانها ٢٩. و(لا يَبعَدَنْ) ، بفتح العين: لا يَهلِكَنْ ، وهو دعاء لهم، و(آفة الجُزر) : دلالة على الكرم ، إذ جعلتهم آفة للإبل لكثرة ما ينحرون منها للضيف ، ينظر: خزانة الأدب ٥/ ٤٥. ٤٨.

[6] . ينظر: كتاب سيبويه ٢/ ٥٧. ٥٨، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ١٦٧، والأصول في النحو ٢/ ٤٠، والجمل في النحو ١٥، والمحتسب ٢/ ١٩٨، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٠٢ و ٣/ ٧٧، والإنصاف (م٦٥) ٢/ ٤٦٨ ، والبحر المحيط ٣/ ٤١٢، وخزانة الأدب ٥/ ٤١، ٤٤.

[7] . ديوانه ١٦٩.

[8] . شرح ديوان كعب بن زهير للسكري ٤٥ . ٤٦. والضمير في (يجدا) يعود على غراب وذئب ذكرهما الشاعر قبل هذين البيتين . و (تجافى): ابتعد عن الأرض ، وذلك أكرم للمطية من أن تلصق بالأرض . و(الزَّوْر) : أعلى الصدر، و قيل: ملتقى أطراف عظام الصدر. و (نبيل) هنا: بمعنى الضخم الجسيم . و (كلكل) : الصدر من كلّ شيء ، وقيل : هو ما بين الترقوتين ، وقيل : هو باطن الزَّور. و (سُمْرٌ) : يعني بها : البَعَر. و (واترتْهُنَّ) : تابعتهُنَّ. و (ذُبَّلٌ): يُبَّس من الضمأ ، ينظر: شرح الديوان ٤٥. ٤٦، ولسان العرب (زور)و (كلل) .

- وقال ذو الرمة [1] :

لقد حَمَلَتْ قَيسُ بنُ عَيلانَ حَربَها على مُستَقِلٍّ للنوائِبِ والحَربِ
أخاها إذا كانتْ عِضاضاً سَما لها على كلّ حالٍ مِن ذُلولٍ ومِن صَعبِ

نصب (أخاها) على الثناء والتعظيم ، ولولا أنّه غيّر أُسلوبه من الخبر إلى هذا الغرض ، لجرّه على البدل من (مستقل) ، فهذه المخالفة الإعرابية سببها المخالفة الأُسلوبية .

ويتضح من هذا الأُنموذج الشعري أنّ المخالفة الأُسلوبية تُغيّر حالةَ الجر إلى حالة النصب أيضاً، كما أنّها تُغيّر الرفعَ إلى النصب، والنصب إلى الرفع .

- قال طرفة بن العبد [2] :

قَسَمْتَ الدَّهرَ في زمنٍ رَخِيٍّ كذاكَ الحُكْمُ يَقصِدُ أو يَجورُ
لنا يومٌ وللكِرْوانِ يومٌ تَطيرُ البائساتِ ولا نَطيرُ

رُوي هذا البيت (تطيرُ البائساتِ) [3]، والأصل في (البائسات) أن يكون مرفوعاً، ولكنه غيّر أُسلوبه من الخبر إلى أُسلوب آخر أُطلق عليه (الترحُّم) [4]، وممّا يدلّ على أنّ الأصل الرفع، وأنّ النصب تغيّر في أُسلوب النظم ، أنّ هذا البيت يُروى بالرفع أيضاً [5] .

- قال عروة بن الورد [6] :

سَقَوني الخَمـــرَ ثُمَّ تَكَنّفوني عُداةَ اللهِ من كَذِبٍ و زُورِ

فلو قال الشاعر (عُداةُ) بالرفع لكان قوله شاهداً على لغة أكلوني البراغيث غير أنّه خالف في الأُسلوب من الخبر إلى الذم ، وهو مقصد الشاعر من إنشاده البيت، ولذا خالف في إعراب (عُداة) من الرفع إلى النصب ، قال سيبويه : ((إنّما شَتَمَهُم بشيءٍ قد استقرَّ عند المخاطبين)) [7].

- قال النابغة الذبياني [8] :

لَعَمري وما عَمري عَلَيَّ بهيّنٍ لقد نَطقَتْ بُطْلاً عَلَيَّ الأقارعُ
أقارعُ عَوفٍ لا أُحاولُ غيرَها وُجوهَ قُرودٍ تَبتغي مَن تُجادعُ

نصب الشاعر (وجوهَ قرود) لمّا حوّل أُسلوبه الكلامي ، إذ إنّ وجه الإعراب الرفع ، ولكنه غيّر أُسلوبه من الخبر المجرد إلى الذم والشتم ، فخالف إعراب الكلام ، ولولا هذه المخالفة الأُسلوبية لما حدثت المخالفة الإعرابية ، إذ لو شاء أن يخبرنا أنّ وجوههم وجوه قرود فقط لرفعَ ، ولكنّه أراد أن يشتمَهم ويذمَّهم فنصبَ .

- وقال سماعة النعامي [9] :

متى تَرَ عَينَي مالكٍ وجِرانَهُ وجَنبَيهِ تَعْلَمْ أنّه غيرُ ثائرِ
حِضَجْرًا كأُمِّ التوأمينِ تَوَكَّأت على مِرْفَقَيها مُستَهِلّةَ عاشرِ

يُروى هذا البيت برفع (حِضَجْر) [10]، غيّر أنّ أبا عمرو بن العلاء (١٥٤هـ) رواه بالنصب (حضجراً) [1] . وعلى روايته هذه خالف الشاعر أُسلوب الخبر إلى أُسلوب الذم ، فنصب (حضجراً) على هذا .

---

[1] . ملحقات ديوانه ٧٤٤ .

[2] . ديوانه ٧٤. وفيه (تطيرُ البائساتُ) بالرفع. و الفاعل في (قسمتَ) يعود على قابوس بن المنذر ، وفاعل (تطيرُ) ضمير الكِروانِ ، وهي جمع كَرَوان ، وهو طائر الحَجَل وقيل ذكر الحُبارى وقيل : الكُرَكيّ ، يُضرب به المثل في الذلة والخوف ومعنى البيت: أنه قد طال مكثنا في باب قابوس، فلا هو أذن لنا بالدخول ولا هو تركنا نرجع بائسين، كما هو حال جماعة الكِروانِ إذا طارت فتلقفتها الصقور، ينظر: خزانة الأدب ٢/ ٤١٨.

[3] . ينظر: شرح المفصل ٢ / ١٨ ، وشرح المقدمة الجزولية الكبير ٢/ ٧٠٤، وخزانة الأدب ٢/ ٤١٨.

[4] . ينظر : شرح المفصل ٢ / ١٨ .

[5] . وهي رواية الديوان ، و ينظر : الشعر والشعراء ١ / ١٨٧ .

[6] . ديوانه ٩٠ . وتكنفوني : أحاطوا بي، وصاروا حواليَّ ، واحتوشوني ، ينظر: لسان العرب (كنف).

[7] . كتاب سيبويه ٢ / ٧٠ .

[8] . ديوانه ٣٤- ٣٥ . و(تُجادعُ) : تُشاتِمُ، وأصلها من الجدع، وهو قطع الأنف أو الأذن، ينظر: لسان العرب (جدع).

[9] . البيت من شواهد : كتاب سيبويه ٢ / ٧١ ، وشرح المفصل ١ / ٣٦، ولسان العرب (حضجر). و(الجِران) : باطن العنق ، و(الحِضَجْر) : العظيم البطن ، ومنه قيل للضبع حضاجر، لعظم بطنها ، و(عاشر)، أي : دخلت في شهرها العاشر فثقل حملها ، ينظر: شرح المفصل ١/ ٣٦، ولسان العرب (حضجر) .

[10] . ينظر : كتاب سيبويه ٢/ ٧١، و شرح المفصل ١ / ٣٦ .

- قال أمية بن أبي عائذ الهذلي [٢] :

ويأوي إلى نِســـوةٍ عُطَّلٍ وشُعْثاً مَراضيعَ مِثلَ السَّعالي

وصف الشاعر صياداً يسعى لقوت عياله، ولكنه غيّر من أُسلوب الوصف الذي هو خبر مجرد إلى أُسلوب الشتم والهجاء ، فتبع ذلك تغيّر في إعراب (شُعثاً) إذ انتقل من الجر ، الذي هو أصل الإعراب هنا إلى النصب ، ليدلّ على تغييره لأُسلوبه، قال سيبويه: ((كأنّه حيث قال : (إلى نِسوةٍ عُطَّلِ) صِرنَ عنده ممّن عُلم أنّهُنَّ شُعثٌ، ولكنّه ذكر ذلك تشنيعاً لهُنّ وتشويهاً . قال الخليل: كأنّه قال: وأذكرُ هُنَّ شُعثاً)) [٣] .

وقد رُوي هذا البيت برواية أُخرى ، هي [٤] :

له نِسوةٌ عاطلاتُ الصُدورِ وعُوجاً مَراضيعَ مِثلَ السَّعالي

ممّا يدلّ على أنّ المخالفة الأُسلوبية مقصودة في مثل هذه الأبيات ورواياتها لغرض المبالغة في الشتم وإيذاء المشاعر، فالأصلُ الرفع،ولكن الشاعر لمّا أراد الشتم والمنقصة لجأ إلى المخالفة الإعرابية، ليدلّ بها على تحوّل الأُسلوب عن الخبر.

- وقال ابن خيّاط العُكْلي [٥] :

وكلُّ قومٍ أطاعوا أمرَ مُرشِدِهِمْ إلا نُمَيراً أطاعَتْ أمرَ غاويها

الظاعنينَ ولمّا يُظعِنوا أحداً والقائلونَ لِمَنْ دارٌ نُخلِّيها

أخبرَ الشاعرُ في البيت الأول أنّ الناس جميعهم يطيعون أمر مَن يدعوهم إلى سبيل الرشاد، إلا قبيلة نمير، التي أطاعت أمر مَن يدعوها إلى الغواية ، وهو ذمٌّ جاء على صورة الخبر . أمّا في البيت الثاني فقد غيّر الشاعر أُسلوبه إلى مطلق الذم لزيادة التشنيع عليهم ، فنصب (الظاعنين) على هذا المعنى ، ثم عاد وغيّر أُسلوبه إلى الخبر بتغيير إعراب (القائلون) ، وحقُّه أن يُنصب عطفاً على (الظاعنين) ولكنه غيّر الإعراب لتغيُّر الأُسلوب ، إمعاناً في الذم والتشنيع عليهم .

- قال لميس الثمالي [٦]:

قُبِّحَ مَنْ يَزني بِعَو فٍ مِنْ ذَواتِ الخُمُرِ

الآكلَ الأشلاء لا يَحفِلُ ضوءَ القَمرِ

نصب(الآكلَ) وهو في القياس النحوي مرفوع ، فلو أنّه أراد الإخبار فحسب لما نصب ، لكنّه خالف إرادة الإخبار إلى أُسلوب مقصود جديد هو الذم والشتم ، فنصبَه على هذا المعنى.

- قال لبيد بن ربيعة [٧] :

نحنُ بني أمِّ البنيـــنَ الأربَعهْ ونحنُ خيرُ عامرِ بنِ صَعصَعه

وردَ هذا البيتُ برواية نصب (بني) في بعض المصادر [٨] . وعلى هذا الوجه هو شاهد على المخالفة الإعرابية التي أطلق عليها النحويون لفظ الاختصاص، إذ غيّر لبيد كلامه من الخبر إلى الفخر ومدح الذات ، فحوّل أُسلوبه الإعرابي أيضاً . وفي رواية الديوان(بنو) وهي موافقة لما أقرّه سيبويه في البيت، إذ قال: ((فلا ينشِدونَه إلا رفعاً ، لأنّه لم يُرِد أن يجعلَهُم إذا افتخروا أن يُعرَفوا بأنّ عِدَّتَهم أربعةٌ ، ولكنّه جعلَ الأربعةَ وصفاً)) [٩] .

- وقال عمرو بن يثربى [١٠] :

*** نحنُ بني ظَبَّةَ أصحابُ الجَمَلْ ***

---

١ . ينظر : كتاب سيبويه ٢ / ٧١ .

٢ . البيت من شواهد : كتاب سيبويه ٢ / ٦٦ ، ومعاني القرآن للفرّاء ١ / ١٠٨ . و(عُطَّل) : جمع عاطلة ، وهي التي لا تملك شيئاً ، و (شُعث) : متغيرات من الجوع ونحوه ، و(السَّعالي) : جمع (السِّعلاة) ، وهي الغول عند العرب وقيل : هي ساحرة الجن ، وإذا كانت المرأة قبيحة الوجه سيئة الخلق خبيثة شُبِّهت بالسِّعلاة، ينظر: لسان العرب (سعل) ، وخزانة الأدب ٥/ ٤٠. ٤١.

٣ .كتاب سيبويه ٢/ ٦٦.

٤ . شرح أشعار الهذليين للسكري ٢ / ٧ .

٥ . البيت من شواهد : كتاب سيبويه ٢ / ٦٥، والإنصاف (م ٦٥) ٢/ ٤٧٠، وخزانة الأدب ٥/ ٤٢. .

٦ . الرجز في: كتاب سيبويه ٢/ ٧٢. منسوباً إلى رجل من أزد السراة ، ونسبه السيرافي في: شرح أبيات سيبويه ٢/ ٥ إلى لميس الثمالي.

٧ . ديوانه ٨٣.

٨ . ينظر : مجالس ثعلب ٢ / ٣٧٥ ، وشرح المقدمة الجزولية الكبير ٢ / ٧٠٣ .

٩ .كتاب سيبويه ٢/ ٢٣٥.

١٠ . البيت من شواهد : شرح شذور الذهب ٢١٩ ، والمقاصد الشافية ٥/ ٤٧٣، وخزانة الأدب ٩/ ٢٢ .

لم يرد الراجز أن يُخبر أنّهم من ضَبّة ، وإن ابتدأ بذلك ، ولكنّه غيّر أُسلوب الخبر إلى أُسلوب المدح والفخر ، فغيّر إعراب الكلام .

وقال عمرو بن الأهتم [1] :

إنّا بني مِنْقَرٍ قومٌ ذوو حَسَبٍ فينا سُراةُ بني سَعْدٍ ونادِيُها

فابتدأ بقوله (إنّا) ، ثم غيّر أُسلوبه الخبري المتوقع إلى المدح والاختصاص، فغيّر إعراب (بني) إلى النصب على هذا .

إنّ مسألة حملِ هذه الأنماط الكلامية على الاختصاص أمرٌ فرغ منه القدماء فقد ذكروا أنّها ممّا يُشبه ((إنّا بني فلان نفعلُ كذا ، لأنّه لا يُريدُ أن يُخبِرَ مَن لا يدري أنّه من بني فلان ، ولكنّه ذكرَ ذلك افتخاراً وابتهاءً)) [2].

على أنّ جملة من هذه الأنماط التي ذُكرت في هذا البحث ليست من باب الاختصاص، لأنّها ليست محمولة على النداء ، كما حُمل الاختصاص عليه، ولكن إذا حللنا بعض هذه الأنماط فلن نجد خلافاً بينها وبين تركيب أُسلوب الاختصاص من حيث تغيّر الأُسلوب وأثر ذلك في تغيّر الإعراب، فهي كلّها قائمة على ما عُرف في البحث بالمخالفة الأُسلوبية، التي تعني : التغيّر من أُسلوب كلامي إلى آخر مخالف، بتأثير معنى جديد يعرض على نمط الكلام ، كأن يكون هذا المعنى مدحاً أو ذمّاً أو شتماً أو ترحُّماً أو فخراً أو غير ذلك من المعاني .ونلحظ أيضاً أنّ هذه المعاني التي تعرض للكلام ما هي إلا معانٍ مقصودة يكشف عنها المتكلم عن طريق المخالفة الأُسلوبية ، فيَظهر شكلها الخارجي مبايناً لما استقرّ من قواعد نحوية لضبط الأداء اللغوي.وعلى هذا الأساس نستطيع أن نجد تفسيراً لأساليب نحوية أخَر ، كالإغراء والتحذير، بما يحمله الأول من معنى الحثّ والترغيب، وبما يحمله الثاني من معنى الخوف والحذر ، وهما أيضاً معنيان مقصودان .وقد ذهب إبراهيم مصطفى إلى أن الفتحة ليست إلا حركة مستحبة خفيفة عند العرب ، وأن ليس لها دلالة على مستوى التركيب ، ولكنها مرتبطة بمعانٍ في أذهان الناس ، ولذا استعملوها لأداء الكثير من الأنماط اللغوية ، كالاختصاص والتحذير والإغراء [3]. وكأنّه يُشير إلى أنّ التغيّر في الإعراب إنّما عرضَ لهذه الأساليب النحوية، لأنّ العرب في كلامها استحبت حركة الفتحة الخفيفة ، فآثروها على الرفع والجر.ولا أرى الحال كما ذكرَ ، فالتغيّر لم يطرأ على الحركة الإعرابية في الأصل سواء أ كانت فتحة أم غيرها ، وإنّما التغيّر لحق أولاً أُسلوب الكلام الذي بتغيره أدى إلى تحويل الحركة الإعرابية عمّا استقرّ لها في القواعد النحوية ، فالأصل في جملة التحذير أن تكون أُسلوباً خبرياً ، فقولنا: النارَ النارَ ، الأصلُ فيها : (هذه النارُ) على الإخبار ـ وهو أمر نظري افتراضي ـ وعندما دخلها معنى جديد هو الخوف والحذر تغيّر الإعراب من الرفع إلى النصب ، وكذلك بالنسبة إلى أُسلوب الإغراء ، ذلك أنّ معاني هذه الأساليب معانٍ مقصودة، إن أخضعناها لمنطق اللغة فقد نقلناها من أُسلوبها المراد إلى آخر شكلي ، وقطعنا بذلك الصلة بين معناها وروحها ، أو بين منطوقها والمعني الذي يبتغيه المتكلم منها.

خلاصة البحث

يمكن أن أذكرَ ما قمتُ به في هذا البحث بالنقاط الآتية:

١ـ عنونتُ البحث بـ (المخالفة الأُسلوبية المُؤثِّرة في الإعراب) وقصدتُ بذلك: تغيّر أُسلوب الكلام من حالة إلى أخرى، وأثر هذا التغيّر في دلالة الأنماط الكلامية وما يتبع ذلك من تغيّر في الإعراب.

٢ـ فرّقتُ بين مفهوم المخالفة الأُسلوبية وأساليب أُخَر، كالمشاكلة والمناسبة السياقية وإعادة الكلام لطوله بقصد التوكيد، بأنّ المخالفة الأُسلوبية تصحبها مخالفة في الإعراب، على حين أن تغيّر السياق في غيرها يستقيم وقواعد النحو.

٣ـ كان مجال تطبيق البحث مجموعة من النصوص القرآنية والشواهد الشعرية الفصيحة التي وردت فيها المخالفة الأُسلوبية ، وبعد عرض ما قيل فيها وتحليلها ثبت أنّ هذه المخالفة تَحدُثُ على أثر معنى جديد يعرض على نمط الكلام، كالمدح أو الذم أو الفخر أو الترحم أو غير ذلك من المعاني المقصودة، التي فسّرها القدماء على أنها اختصاص، وأنّ هذه المخالفة هي السبب في تغيّر الإعراب من الرفع إلى النصب ، أو من النصب إلى الرفع ، أو من الجر إلى النصب.

---

[1] . البيت من شواهد : كتاب سيبويه ٢/ ٢٣٣، ومعاني القرآن للفرّاء ١ / ١٠٥ – ١٠٦ ، وشرح المفصل ٢/ ١٨، والمقاصد الشافية ٥/ ٤٧٢.

[2] .كتاب سيبويه ٢/ ٦٦.

[3] . ينظر: إحياء النحو ٥٠.

٤ـ نبّهتُ على أنّ بعض الأساليب النحوية، كـ (الإغراء والتحذير) يمكن أن يُعاد النظر في أحكامها النحوية، فتُفسَّر تلك الأحكام على أساس ما يحدث فيها من تغيّر أُسلوبي، من الإخبار إلى معنى الحثّ والترغيب في الإغراء ، والى معنى الخوف والحذر في التحذير، وهما معنيان مقصودان.
٥ـ اختصّ البحث بدراسة أثر الأُسلوب في التراكيب الكلامية . وأُشيرُ هنا إلى إمكان دراسة المخالفة في الأبنية على وفق المخالفة الأُسلوبية ، ومثال ذلك : أنّ العرب إذا أرادوا المبالغة في المدح أو الذم أدخلوا كثيراً من التغيّر على البناء الأصلي ، نحو قولهم:(رجلٌ علّامةٌ، وفهّامةٌ، و جمّاعةٌ، وشتّامةٌ، و بذّارةٌ، وراويةٌ وداهيةٌ، ولَجُوجَةٌ). فيدخلون علامة التأنيث في هذه الكلمات مع المذكر للمبالغة، ونلحظ بالمقابل أنّهم قد يحذفون هذه الهاء على هذا المعنى مع المؤنث، في نحو قولهم : (أُمٌّ بَرورٌ، وامرأةٌ مِغناجٌ) .

مصادر البحث ومراجعه

ـ إحياء النحو : د. إبراهيم مصطفى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة، ١٩٣٧م.
ـ الأصول في النحو: ابن السراج(أبو بكر محمد بن سهل ت ٣١٦هـ)، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٣ ، ١٩٩٦م .
ـ أمالي ابن الشجري: ابن الشجري(هبة الله بن علي بن محمد ت ٥٤٢هـ)، تحقيق د. محمود أحمد الطناحي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١، ١٩٩٢م.
ـ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين : أبو البركات الأنباري (كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٥٧٧هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ، (د.ت) .
ـ البحر المحيط : أبو حيان النحوي (أثير الدين محمد بن يوسف ت ٧٤٥هـ)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض ، شارك في تحقيقه د. زكريا عبد المجيد النوتي و د. أحمد النجولي الجمل ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م .
ـ التبيان في إعراب القرآن : أبو البقاء العكبري (عبد الله بن الحسين ت ٦١٦هـ)،تحقيق علي محمد البجاوي، دار الشام للتراث، بيروت،(د. ت).
ـ تفسير ابن كثير(تفسير القرآن العظيم): ابن كثير(أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ)، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا و د. محمد عاشور و د.عبد العزيز غنيم ، دار الشعب، القاهرة ، ١٩٧١م.
ـ التفسير الكبير(مفاتيح الغيب) : الرازي (فخر الدين محمد بن عمر ت ٦٠٦هـ) ، دار الفكر، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١م.
ـ الجمل في النحو: الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ت ٣٣٧هـ) تحقيق د. علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط ٤، ١٩٨٨م .
ـ الحجة في القراءات السبع : ابن خالويه (الحسين بن أحمد ت ٣٧٠هـ) ، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ، القاهرة، ط ٢ ، ١٩٧٧م.
ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: البغدادي (عبد القادر بن عمر ت١٠٩٣هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط ٤، ٢٠٠٠م .
ـ ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي : تحقيق مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٤م.
ـ ديوان خِرنِق بنت هفّان : تحقيق د. حسين نصار، دار الكتب المصرية ، ط ١، ١٩٦٩م.
ـ ديوان ذي الرمة : تحقيق د. عبد القدوس أبو صالح ، مؤسسة الإيمان ، بيروت ، ١٩٨٢م.
ـ ديوان رؤبة بن العجاج (مجموع إشعار العرب) : نشره وليم بن الورد البروسي ، لايبزك ، ١٩٠٣م .
ـ ديوان طرفة بن العبد : تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ، ط ١، ١٩٦٩م.
ـ ديوان عروة بن الورد : تحقيق عبد المعين الملوحي ، بيروت ، ١٩٦٦م.
ـ ديوان الفرزدق : شرح عبد الله الصاوي، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٣٦م.
ـ ديوان لبيد بن ربيعة العامري : تحقيق د .عمر فاروق الطبّاع ، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٧م .
ـ ديوان مهلهل بن ربيعة : دار صادر ، بيروت ، (د. ت) .
ـ ديوان النابغة الذبياني: تحقيق د.شكري فيصل،دار الفكر،بيروت، ١٩٦٨م.
ـ روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني : الآلوسي (أبو الثناء السيد محمود البغدادي ت ١٢٧٠هـ) ، إدارة الطباعة المنيرية ، مصر، (د. ت).
ـ السبعة في القراءات : ابن مجاهد (أبو بكر أحمد بن موسى ت ٣٢٤هـ) تحقيق د. شوقي ضيف ، دار

المعارف ، مصر، ط ٣ ، ١٩٨٨م .
ـ شرح أبيات سيبويه : السيرافي (أبو سعيد الحسن بن عبد الله ت ٣٦٨هـ) ، تحقيق د. محمد علي السلطاني ، دار المأمون للتراث، دمشق ، (د. ت) .
ـ شرح أشعار الهذليين للسكري : تحقيق عبد الستار أحمد فراج، راجعه محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٦٥م.
ـ شرح ديوان كعب بن زهير، للسكري : تحقيق أنطوان القوّال، دار الفكر العربي ، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م.
ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: ابن هشام الأنصاري (أبو محمد عبد الله بن يوسف ت ٧٦١هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،مطبعة السعادة ، مصر، ط ٤، ١٩٤٨م.
ـ شرح المفصل: ابن يعيش(موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش ت٦٤٣هـ)، إدارة الطباعة المنيرية ، مصر ، (د. ت) .
ـ شرح المقدمة الجزولية الكبير : الشلوبين (أبو علي عمر بن محمد ت ٦٤٥هـ) تحقيق د. تركي بن سهو بن نزال العتيبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.
ـ الشعر والشعراء : ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار التراث العربي، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٧م.
ـ كتاب سيبويه: سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت ١٨٠هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨م.
ـ الكشاف عن خصائص غوامض التنزيل وعيون الأقأويل في وجوه التأويل : الزمخشري (جار الله محمود بن عمر ت ٥٣٨هـ)، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠١م .
ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع : مكي القيسي (أبو محمد مكي بن أبي طالب ت ٤٣٧هـ) ، تحقيق د.محيي الدين رمضان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٤م.
ـ لسان العرب: ابن منظور(جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١هـ)، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م .
ـ مجالس ثعلب : ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى ت ٢٩١هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، مصر، ط ٤، (د. ت) .
ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: ابن جني (أبو الفتح عثمان ت ٣٩٢هـ)، تحقيق علي النجدي ناصف و د. عبد الحليم النجار و د.عبد الفتاح شلبي، مطابع الأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٤م .
ـ مشكل إعراب القرآن : مكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق الكتور حاتم صالح الضامن ، مطبعة سلمان الأعظمي ، بغداد ، ١٩٧٥ م .
ـ معاني القرآن : الأخفش (سعيد بن مسعدة ت ٢١٥هـ) تحقيق د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٠م .
ـ معاني القرآن : الفرّاء(أبو زكريا يحيى بن زياد ت ٢٠٧هـ) ،عالم الكتب ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣م .
ـ معاني القرآن وإعرابه : الزجاج(أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل ت ٣١١هـ)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب بيروت ، ط ١، ١٩٨٨م.
ـ المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية : أبو إسحاق الشاطبي (إبراهيم بن موسى ت ٧٩٠هـ) ، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، طبعة معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى،السعودية ، ط١، ٢٠٠٥م .
ـ مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق د. أحمد عيسى المعصراوي ،دار السلام، مصر، ط ١، ٢٠٠٣م.
ـ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : الواحدي (علي بن أحمد ت ٤٦٨هـ) ، تحقيق صفوان عدنان داودي ، دار القلم ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥هـ .